نقائض جرير والأخطل

نظر انتقادي للاب لويس شيخو اليسوعي

ما ادراك ما النقائض ؟ سهامٌ يرشقها الشعراء خصومهم فيتلقّاها هؤلاء ويردّونها على الراشق . يحدُّ اللغويون النقيضة بقولهم « هي ان يقول شاعر شعرًا فينقض عليه شاعر آخر حتّى يجيء بغير ما قال » . فالشاعران اشبه بفارسَين في حلبة يهمّ الواحد بطعنة قرنه فيتنمّر هذا غيظاً ويحاول ان يثأر لنفسه ويصرع مناوئهُ فيلقمهُ الحجر . وربّما كان سيف اللسان احدَّ واقطع من نصل الحسام

ومن تصفّح تاريخ العرب وقبائلهم وجد ما كان من الحزازات في قلوب البعض منهم على البعض وذلك لاسباب يعدُّها غيرُهم طفيفةً زهيدة ويعتبرها العربيّ العصاميّ كبيرةً جسيمةً يتناجزون القتال لاجلها اعواماً كما ترى في حرب البسوس وحرب الغبراء وداحس . واذا قام مُصلح واخمد سعير الحرب يُعقبهُ دور الشعراء فيفتخر كلّ منهم بقومه وينسب اليه من المآثر ما صغر وما كبر فيؤدي به هوسهُ الى ابتخاس حقوق غيره فيكلُ هؤلاء امرهم الى شاعر من قومهم ينتصرلهم بنقض مدّعيات خصومهم . فيصبح لقبيلته كالمجنّ يسترها من ضربات عدوّها وكالسيف ينكيه ويرغم معاطسهُ . ولذلك كانوا اذا نبغ شاعر مُفلق في قبيلة رفعوا قدرهُ والتفّوا حولهُ التفاف الرعايا بسيّدهم والجند بقائدهم

وممّن اشتهروا في هذه المناقضات في عهد بني اميّة في اواخر القرن الاوّل للهجرة ثلاثة شعراء يعدُّهم العارفون في الطبقة الاولى من شعراء الاسلام نزيد بهم جريرًا والفرزدق والاخطل . ينتمي الاوّلان الى تميم : جرير الى يربوع والفرزدق الى دارم . اما الاخطل فهو الشاعر التغلبيّ الشهير . وكلهم من المتقدّمين وقد اختلفوا في ايّهم المتقدّم وقابلوهم بشعراء الجاهليّة الثلثة فقالوا انّ جريرًا يُشبّه بالاعشى والفرزدق بزهير والاخطل بالنابغة . وما كان احراهم ان يجروا في الميدان جَرْي خيل الرهان دون ان يتبارزوا ويتقارعوا ويهتضم الواحد حقوق الآخر فيُنزلهُ وقومَهُ العار ولعلّ جريرًا لهُ

السَّبق على قرنَيْهِ بشتمهِ وسبابهِ وهُجر كلامهِ لا تكاد قصيدة من قصائدهِ تخلو من الهجو الفاحش والبذيء من الكلام

وهو هو جرير الذي دفعهُ سوء خلقهِ الى إذكاء تلك الحرب على الاخطل وكان ابنَ من جرير والفرزدق عُرض عليهِ شعرهما ليحكم بينهما دعاهُ الى ذلك الامير بشر بن مروان فاستعفاهُ بجُهدهِ فأبى الّا ان يقول فقال: هذا حكم مشئوم. ثم قال: انَّ الفرزدق ينحت من صخر وجرير يغرف من بحر . فمال بحكمهِ هذا الى جرير وفضَّلهُ على الفرزدق لكنَّ جريرًا لم يرضَ بهِ وكان سببَ هجائهِ للاخطل فردَّ عليهِ الاخطل ثمَّ استطارا بالهجاء. ولم يلبث ان عدل الاخطل الى الفرزدق فناقض هو ايضاً جريرًا ثمَّ ناقضهُ غيرهما ايضاً دون الفرزدق والاخطل منزلةً ولم يفضل من تلك النقائض الّا نُتَف تروى في بعض كتب الادب او في دواوينهم . أما نقائض جرير والفرزدق ونقائض جرير والاخطل فقد اهتمَّ الأدباء بجمعها فضلًا عمَّا ورد من بعض قصائدها في دواوين ثلاثتهم

وقد عُني المستشرق الاديب الانكليزي انطوني اشلي بيفن (Anthony Ashley Bevan) بنشر نقائض جرير والفرزدق في ثلثة مجلَّدات ضخمة تبلغ نيفاً و ١٧٠٠ صفحة بقطع كبير في مطبعة ليدن الشهيرة في هولندة بين السنتين ١٩٠٥ و ١٩٠٩ لم يدَّخر من محاسنها شيئاً لولا انَّ حروفهُ ضئيلة مستدقَّة كان الاولى ان تُبدل بغيرها أنضر وأشرق منها. وقد كتب حضرة الاب انطون صالحاني في المشرق (١٠[١٩٠٧]: ٦٣٥—٦٤١ و ١٣ [١٩١٠]: ٩٦—٩٧) فصلين حسنين في انتقاد هذه الطبعة وبيان خواصها المستجادة قبل تمام سائر اقسامها وفهارسها الرائعة العديدة الفوائد

أمَّا نقائض جرير والاخطل فكان منها نسخة واحدة فريدة ضائعة او راقدة بسُبات عميق بين مخطوطات المكتبة العموميَّة في الاستانة . وكان اوَّل انتباهنا لوجودها عندما نُشرت بالطبع قائمة مخطوطات تلك المكتبة في السنة ١٣٠٠ (١٨٨٢م) . وقد ورد ذكرها في الصفحة ٢٦٥ من هذا الفهرس بالفاظ قليلة لا تشفي غليلًا على هذه الصورة بالتركي: «نقائض جرير واخطل . عربي . تأليف الى تمام . مطور ١٣ . واقفهُ محمَّد اسعد دده . خطّ شبيه بالكوفي» . وللكتاب نمر من عمومية ٤٧٠ وخصوصيَّة في المحاضرات ١٠٥

فلمّا باشر حضرة الاب انطون صالحاني بنشر ديوان الاخطل استنادًا الى نسخة في مكتبتنا الشرقيّة نقلها المرحوم رزق‌الله حسّون عن نسخة بطرسبورج (بتروغراد) وذيّلها بالشروح المطوّلة ثمّ اضاف اليها قسماً خامساً ضمّنهُ ملحوظات عديدة على الاقسام السابقة ثمّ الحقهُ بنشر نسخة جديدة اكتُشفت في بغداد شفعها مع المستشرق الايطالي اوجانيو غريفيني برسم نسخة ثالثة وُجدت في اليمن لم يهتدِ لهُ بال حتّى يتمكّن من نشر ما بقي من آثار عشيقهِ الاخطل ولو كانت ضالّتهُ في اقاصي الامور

وكان الدخول سابقاً في مكاتب الاستانة من اشدّ الامور واعصاها يحتاج ذلك الى مداخلة سفراء الدول والمداولات الرسميّة. فلمّا كانت السنة ١٩٠٤ عهد الينا رئيس رسالتنا بان نسير في صحبة اولاد الوزير فرمان‌فرما صهر جلالة ملك العجم الذين كانوا درسوا في كليّتنا بضع سنين وكان دولة والدهم اوعز اليهم بان يذهبوا لإتمام دروسهم الى مكاتب بلجكة العسكريّة. وكان سفرنا بحرًا الى الاستانة. فطلب الينا حضرة الاب صالحاني ان نفحص نسخة نقائض جرير والاخطل فنفيدهُ علماً عن كلّ مزاياها

وقد وصفنا في المشرق (٧ [١٩٠٤] : ١٠٦٧ — ١٠٧٢) حلولنا في عاصمة الاتراك في العشر الاخير من شهر تموز ونحن مصمّمون العزم على مواصلة سفرنا بعد يومين الّا انّ الامور جرت على خلاف فكرنا فقضينا في دار السلام ثلثة اسابيع أمكننا في مدّتها ان نطّلع على كل محاسن تلك الحاضرة الجليلة ونزور معاهدها. وكان اكبر املنا ان نداين مكاتبها المتفرّقة في الجوامع لولا ما لقينا في وجهنا من العوائق الجمّة في الدخول اليها فأيسنا من درس مآثرها اللهمّ الّا المكتبة العموميّة التي دخلناها فلم نجد فيها من المخطوطات النادرة الّا النزر القليل

على انّ الحظّ اسعدنا فوقفنا هناك على الضالّة المنشودة اعني نسخة نقائض جرير والاخطل الفريدة فصرفنا كلّ همّتنا الى فحص الكتاب فحصاً مدقّقاً. واذ وجدنا فرصةً سانحة باشرنا بنسخ ما امكننا من قصائده

ولم يكن الامر سهلاً لقدم الكتاب الراقي الى القرن الثالث او الرابع للهجرة يدلّ على تاريخهِ ورقهُ الصفيق وخطّهُ الشبيه بالكوفيّ. فكانت قراءتهُ تستدعي طول نظر لالتباس الحروف القديمة والحديثة ولما طرأ على المخطوط من تأثير المداد في اطراف الكلمات حتّى كاد يطمسها مع وقوع الخلل في تشكيلهِ وتنقيطه. ولم

يكن لدينا ديوانا الاخطل وجرير لنقابل بينهما وبين النسخة الخطيَّة . فرأينا ان الاولى ان ننقل منها ما يحضرنا مع تصوير الالفاظ الملتبسة ريثما تسنح الفرصة بإعمال النظر في ذلك المنقول على علاته . وقد صرفنا خمسة عشر يوماً في نسخ نحو ٦٠ صفحة منهُ

فلمَّا رجعنا الى بيروت بعد شهرين تهافت حضرة الاب صالحاني على هذا المنسوخ فزادت بطالتهِ رغبتهُ في درس النسخة الاصليَّة وإعدادها للطَّبع . فسعى غير مرَّة لدى الاصحاب في الاستانة ليأخذوا رسمها بالتصوير الشمسي لكنَّ حالة النسخة من اصفرار ورقها وطمس حروفها لم تأتِ بالنتيجة المطلوبة كما ترى في المثال الذي ادرجهُ في طبعتهِ الحاضرة

وعليهِ لم يرَ بُدًّا من السفر الى الاستانة ليتولَّى فيها درس تلك النسخة الفريدة وينقلها بتمامها . فلم يزل يترقَّب فرصةً موافقة حتى وجدها في اوائل شهر تموز من السنة ١٩١٤ فأبحر الى العاصمة وما لبث عند وصولهِ ان توجَّه في المكتبة العموميَّة وتفرَّغ لفحص النسخة المنشودة أيَّاماً متوالية مدَّة شهر بنيف لا يصرف عنها نظرهُ ويتنقَّد كلَّ معمَّياتها ويقابلها مع القصائد المطبوعة سابقاً حتَّى تمكَّن من فكِّ كلِّ رموزها وحلِّ كلِّ اسرارها ونقلها نقلاً كاملاً كما رغبهُ

وما كاد ينتهي من عملهِ حتَّى شامت الدولُ بوارق الحرب الكونيَّة ولمعت رعود المدافع واخذت تركيَّة في الاستعداد للانحياز الى الدول المركزيَّة فاسرع الاب وركب الباخرة التجاريَّة الاخيرة الخارجة من بحر مرمرا الى سواحل سوريَّة

ثمَّ حدثت تلك الوقائع المشئومة التي يعلم بها الجمهور فاستولت الحكومة التركيَّة على كليَّتنا ونهبت مطبعتنا حتَّى ظننَّا انَّها لن تعود يوماً الى الحياة . فكان ما كان وحضرة الاب صالحاني يصون كنزهُ صيانة الحريص على علق مُضنتهِ يتفقَّدهُ في تلك سنين الفراغ ويردِّد فيهِ النظر ويتحقَّق رواياتهِ ويُصلح اغلاطهُ رجاء ان يفيد يوماً بنشرهِ اهل العلم

فلم يخب املهُ وها هوذا الآن قد اخرجهُ الى حيِّز الوجود رافلاً بثوبهِ الازرق ونقوشهِ البديعة واطارهِ الذهبيِّ في قطع الثمن تبلغ صفحاتهُ ٢٥٠ عدًّا وفيهِ ثلاث صفحات من الاصل المخطوط مرسومة بالفوتغراف

وقد قدَّم عليهِ بالافرنسيَّة لافادة المستشرقين مقدِّمةً في ١٦ صفحة شرح فيها كل

ما يختصّ بنقائض جرير والاخطل مع تعريف النسخة التي حاول نشرها وبيان دقائقها وخصائصها وحسناتها ونقائصها ثمّ بحث عن مضامينها وما فيها من القصائد مع تدوين سياقها سواء كانت لجرير والاخطل ام لغيرهما استطراداً . ونبّه الى ما وقع من الخلل في الاصل عند تجليده بنقل بعض صفحاته ووضعها في غير محلّها

اما القسم العربيّ فيتناول اوّلاً نشر نسخة الاستانة برمّتها من قصائد وشروح كما هي في الاصل . وهي تبلغ بين طوالٍ وقصار ٥٤ قصيدةً او مُقطّعةً . وعلى الهامش بأعداد افرنجيّة بدء صفحات النسخة الاصليّة الخطّيّة وجهها وظهرها

ويحتوي ثانياً تعاليق وتذييلات واسعة وروايات مختلفة نقلها حضرة الاب بعد الشغل الطويل عن كل المعاجم العربيّة وكتب الادب المطبوعة والمخطوطة الزائدة على المائة مضيفاً اليها ملحوظات دقيقة واصلاحات انتقادية تدلُّ على حسن نظر واستقصاء بحث عظيمين

وقد الحقهُ ثالثاً بوصف بعض ايام العرب المنوَّه بها في نقائض جرير والاخطل نقلاً عن نسخة خطّيّة من ديوان جرير في مكتبتنا الشرقيّة بها تتّضح عدّة تلميحات يعرّض بها الشاعران في قصائدهما

وفي آخره رابعاً ثلاثة فهارس تقرّب فوائد هذه الطبعة وتزيد صاحبها فضلاً وهي : ١ فهرس واسع على طريقة حروف المعجم لكافّة اعلام الاشخاص والامكنة الواردة ذكرها في الكتاب . ٢ فهرس لقوافي كلّ القصائد والمقطّعات والابيات المفردة المذكورة في الكتاب او المستشهد بها مع الدلالة على بحرها وعدد ابياتها وناظمها . ٣ فهرس التآليف التي راجعها حضرة الاب لتعليق حواشيه للاستدلال على اصلها

فكفى بتعداد هذه المميّزات ليعرف الادباء بايّ اتقان واي مساعٍ قد نجز هذا الكتاب الفريد الذي يحسن بكل المستشرقين ان يتّخذوه كمثال لجودة مطبوعاتهم والذي يجب ان تزدان به مكاتب الخاصّة ونوادي الأدباء

فنرحّب بهذا المولود الجديد ونتمنّى ان يختم حضرة الاب كلّ ما نشرهُ عن الاخطل بتتمّة الجزء الخامس من ملحوظاته وبنشر فهرس واسع لما في كلّ الاجزاء من الاعلام والفوائد . جازاهُ الله عوداً وبدءاً على كل آثاره في خدمة الوطن والعلوم العربيّة